جديد "القطان"

"القطّان" يصدر كتاباً جديداً

"مخيلة الحكاية – في استكشاف القصة وإنتاج المعنى"

الكتاب: مخيلة الحكاية
في استكشاف القصة وإنتاج المعنى
المؤلفان: مالك الريماوي، وسيم الكردي
الناشر: مركز القطّان للبحث والتطوير التربوي. رام الله ٢٠٠٥

مقدمة الكتاب:

في سياق الرؤيا العامة لمركز القطان للبحث والتطوير التربوي لمساءلة المناهج المدرسية، عبر الشراكة مع المعلمين والمعلمات لإعادة صياغتها وموقعتها كأساس للتعليم باعتبارها منظومة من الحياة والفكر والعالم، وليس ما يحصر فقط في كتاب، ومن خلال العمل على تنمية تعليم اللغة، اكتشفنا ضرورة تغيير لغة التعليم عبر استحضار المغيَّب والانتصاف للمهمش وإبداع المفاهيم وترميم الفراغات، بغية تأسيس منطلقات نظرية جديدة، وإنتاج مقترحات تطبيقية ومقاربات تعليمية توفر للطلاب سياقات تعلم تتضمن وسائط التعلم والرغبة فيه.

يأتي هذا الجهد الكتابي في موضوعة تعليم اللغة ليقدم رؤية مختلفة في هذا المجال، وهذا دور الكتابة التي هي **رؤية** جديدة للأشياء وللعلاقات، ولذلك اشتغلنا على استدخال مفاهيم ومصطلحات جديدة، من مثل إنتاج النصوص وتأويلها ومقاربتها كسياقات وفضاءات للبحث والاستكشاف، وتوظيف الكتابة كسياق بحثي وفعل استقصائي يستقصي الذات والعالم، ويعيد مساءلتهما، وقد تأتى ذلك من الاستهداء بنظرة مختلفة للطالب، ونظرة إلى المتعلم ككائن متفرد من جهة، وإنساني اجتماعي ينوجد في إطار ثقافي ومحيط اجتماعي وباعتباره كائناً منتجاً ومتلقياً للنصوص من جهة أخرى، فعملية الكلام والتخاطب الإنساني هي في حد ذاتها عملية إنتاج وتلق للنصوص في الوقت نفسه، حيث عملية التواصل والتلفظ هي في جوهرها عملية تلق وإرسال تبنى أساساً على عملية الاستماع النشط، وما ينتج عنها من استجابة وتفاعل مع نصوص الآخرين.

والإنسان ككائن اجتماعي لغوي لم يتحقق بهذه الصفة "ككائن لغوي" إلا بعد ارتباط اللغة بالتفكير ضمن إطار علائقي، فالتفكير يغدو عملية كلامية، والكلام يغدو عملية ذهنية. وانطلاقاً من هذا الفهم، نظرنا إلى التعليم اللغوي باعتباره ضرورة قصوى ترى أن غاية التعليم اللغوي ليست القراءة بمعناها الحرفي، كفك للرمز المكتوب، ولا الكتابة بالمعنى نفسه، كرسم للكلام الشفهي بالخط، ولا الإدراك لمعاني الكلمات المفردة أو رصها بجانب بعضها في جمل تنسجم مع قواعد الصرف والنحو، وإنما تنمية كفايات الطالب على التفكير بتوفير فضاء سيميائي أرحب له، باعتبار أن اللغة هي المجال السيميائي الأكثر أهمية لصيرورة تحققه ولتنمية كفاءته في تكوين التفاهمات مع الآخرين، وتنمية كفايات الطالب التواصلية والنصية. إن عملية نشوء الكائن الإنساني المتفرد مرهونة بتطور قدراته في مجالات المعرفة واللغة والفعل، وهذه الجوانب الثلاثة للتطور الإدراكي والتواصلي والتفاعلي تتحقق عبر سيرورة من الانفصالات والنقلات التطورية.

وفي ضوء هذه الرؤية لطبيعة اللغة تولّد لدينا اهتمام خاص بالقصة كسياق لتعلم اللغة وتعليمها، يمكنه أن يوفر المجالات والنوابض اللازمة لتحقيق ذات الطالب ضمن سلسلة من الانفصالات، وقد أولينا اهتماماً بكيفية التعامل معها في الكتب المدرسية وبالمنهجية التحليلية والبيداغوجية التدريسية المطبّقة فيها. والاهتمام بالقصة ناتج عن إمكاناتها وطاقاتها كنص تعليمي تعلّمي، فهي نص لغوي بامتياز: نص تُشكّل اللغة مادته وغايته من جهة، وتحضر فيه بتنوعها السياقي والنصي والاجتماعي من جهة أخرى؛ فكل شخصية في القصة لغة، تتأطر وتتحدّد بخلفياتها الاجتماعية وأطرها السياقية وأجوائها الوجدانية والنفسية. والقصة بهذا المعنى مسرح للغات متعددة من اللغة الواحدة، تتعدد بتعدد السياقات والخلفيات والبيئات، وهي لغات حية تتحقق في سياقات حدثيّة بأشكال واقعية أو متخيلة، وضمن حركة في المكان والزمان، وهي ليست لغة صورية أو نحوية مجردة، بل هي لغة متنوعة التواجد الأسلوبي؛ فهناك السرد والوصف والحوار في تضافر نصي ووحدة أسلوبية، وهذا التعدد اللغوي والأسلوبي والنصي ينعكس على التنوع المعرفي والقيمي الذي يتعدد بتعدد وجهات النظر والأصوات والمواقع. والقصة أيضاً كتجربة متخيلة وفضاء تجريبي للحادث والممكن الحدوث تمثل مجالاً لإطلاق الطاقات، وهذا ينعكس إيجابياً على المستوى التربوي فيما يخصُّ المتعلم وموقفه من قضايا التعدد، والتنوع، والانفتاح، والحوار، واحترام الآخر، وتقبل الاختلاف، والتنوع، وهذه القضايا جميعها تشكّل أساساً للتحاور والتعاون.

والقصة في مستواها الآخر، هي التاريخ الاجتماعي الآخر، أو هي التاريخ الذي كان يجب أن يحدث لأنه تاريخ الناس وتاريخ رغباتهم وأشواقهم، وبالتالي، فالقصة هي أكثر الفضاءات والسياقات ملاءمة لاقتراح التاريخ الآخر ومساءلة الحياة وإعادة تشكيلها لصالح الرغبة وضد السلطة وقوالبها وطغيانها، وهي، لذلك، إطار فاعل لمناقشة القضايا والمسائل الإنسانية والمجتمعية بأفق مفتوح، وفي أجواء واقعية وسياقات تخييلية تعيد صياغة المنجز المعرفي بمساءلته ونقده.

ولقد تم اختيارنا لهذه الموضوعة[1] لمعرفتنا بعدم وجود دراسات عربية تنظر إلى تعليم اللغة نظرة شاملة وكليّة،

فالإسهامات المتوفرة في مجال تدريس اللغة العربية تتناول ذلك بشكل جزئي ونسبي، وتقتصر الدراسات عموماً على موضوعات النحو، أو الصرف، أو البلاغة، أو الإملاء ... الخ، ولندرة الدراسات الخاصة بتدريس القصة واستثمارها كسياق تعليمي تعلّمي عربياً، ولغياب الدراسات الخاصة بتحليل المنهاج المدرسي، وفي حالتنا تحليل المنهاج الفلسطيني. ويعود ذلك إلى حداثة التجربة الفلسطينية من ناحية، وخداجة الفكر التربوي في فلسطين من ناحية أخرى. ولقد شكلت هذه المعوقات والصعوبات، إلى جانب أهمية الموضوع، دوافع لمقاربة هذه الموضوعة في هذه الأرض التي تكاد تكون بكراً، وذلك عائدٌ، بالإضافة إلى الأسباب السابقة، إلى أهمية اللغة في مسار التعليم، وأثرها على التفكير والمسلك القيمي والبناء الداخلي للإنسان. ولتجاوز ذلك، فإننا اقترحنا القصة كسياق تعليمي ووسيط تعلمي يمكن للمتعلم من خلاله اكتشاف الآخر والتعرف عليه "وإدراك صوته من خلال إدراك موقعه" (الكردي، ٢٠٠٣: ٩). والقصة بهذا المعنى هي الحياة في صيغتها اللغوية، وهي اللغة في وجودها الاجتماعي.

وإذ نقوم بذلك، فإننا نتمنى أن تفتح هذه المساهمة المجال لدراسات أخرى في مجالي تعليم اللغة وتوظيف القصة في التعليم، وفي البحث عن أشكال جديدة لمقاربة القصة تعليمياً، والعمل على تطوير أساليب تدريس القصة لتنفتح على العلوم النصيَّة ونظريات الخطاب. وبهذا يشتغل هذا الكتاب على تقديم

"مخيلة الحكاية" نحو بناء علاقة تفاعلية ايجابية مع العالم

مشهور البطران

لدى مطالعة أي إصدار جديد، فإن السؤال الأساس هو: "أيُّ إضافة نوعية يقدمها هذا الكتاب للمتلقي؟ إن عرض هذا الكتاب ما هو إلا محاولة متواضعة للإجابة عن هذا السؤال.

الكتاب في إطاره العام:

ابتداء، فإن حركة التأليف في ميدان الفكر التربوي عامة، والبيداغوجيا بشكل خاص، وئيدة إذا ما أخذنا معيار النوعية كنقطة إسناد، فالإصدارات التربوية التي تنضاف سنوياً؛ في الغالب لا تكسر المألوف بل تماشيه، وتتساوق مع الأطر التقليدية الحاكمة للمنظومة التربوية.

وهذا ينطبق أيضاً على الأبحاث التربوية التي تصدر عن المؤسسات الأكاديمية، فهي الأخرى في أعم الحالات تنساق في الأطر نفسها، وتنطلق من المنطلقات ذاتها، ذلك أن هذه الأبحاث دافعها الأساس هو الحصول على درجات علمية فحسب، ما يقلل من إمكاناتها التثاقفية والحوارية من جهة، وقابليتها للانخراط في الممارسة من جهة أخرى، حيث تؤول في النهاية إلى رفوف المكتبة وتتحول إلى أرقام إضافية في نظام ديوي العشري.

الكتاب الذي بين أيدينا متخصص في استكشاف القصة وتفعيلها في سياق تعليمي، وهو موجه إلى معلمي اللغة العربية، ويشمل مقاربات تعليمية لنصوص قصصية للصفوف الأساسية من السادس وحتى التاسع الأساسي.

مؤلفا الكتاب صاحبا تجربة طويلة نسبياً في التعليم، وبالتالي فالكتاب مؤسس على التجربة الواقعية للمؤلفين كمعلمين، ومن شخصين خبرا عن كثب مشكلات تعليم اللغة العربية وآدابها، وهنا تكمن أهمية الكتاب، ومن ورائه أهمية المؤلفين، في أنه استطاع أن يوازي بين البنية التنظيرية في أعلى مستوياتها والقابلية للتفعيل الصفي في أبسط مستوياته، وهذا راجع أساساً لكون الكتاب –في إطاره التطبيقي– خلاصة تجارب اشتغل عليها المؤلفان من خلال ورش عمل على مجموعات من المعلمين والطلاب، ما أتاح لهما المراجعة الدائمة وإعادة النظر في نوعية النشاطات وقابليتها للتطبيق من خلال التغذية الراجعة التي يوفرها المعلمون والطلاب الذين باشروا هذه الفعاليات.

المنطلقات الفكرية:

إن عرض هذا الكتاب مهمة ليست باليسيرة، ذلك أنه شامل لحقول معرفية كثيرة تتعلق بالعلوم اللغوية والسردية وعلوم النص ونظرياته واتجاهاته الفلسفية، وكذا مدارس النقد الأدبي والاتجاهات التربوية في مقاربة النصوص، وهذه الحقول تمازجت عبر فصول الكتاب وتضافرت من أجل خدمة الفكرة الرئيسة للكتاب المتمثلة في آليات استكشاف القصة في السياق التعليمي، وحتى يكون في مكنتنا تناول كتاب على هذه الدرجة من الاشتباك بين الثقافي والإبداعي والبيداغوجي، فإن الأمر يقتضي تحديد الخلفيات الفكرية والنظرية التي تأسس عليها الكتاب وانطلق منها.

فالكتاب من الناحية التربوية مؤسس على رؤية مغايرة لعمليتي التعليم والتعلم باعتبارهما (منظومة من الحياة والفكر والعالم). وهي نظرة حداثوية للفعل البيداغوجي كنتاج لعملية ثقافية اجتماعية أوسع ينخرط فيها المعلم والمتعلم كعنصرين فاعلين، تتضافر جهودهما معاً بغية بناء المعرفة وإعادة إنتاجها.

إذن، فالعملية التعليمية وفق هذا التصور ليست وسيلة إخبارية، بل حياة فكرية في عالم صغير هي المدرسة تتعالق مع العالم الأوسع في سياق اجتماعي ثقافي.

والكتاب أيضاً ينظر للطالب ككائن متفرد بذاته (طالب نشط مفكر وناقد ومحاور) ضمن منظومة من العلائق الاجتماعية والثقافية، بحيث تجعل من الطالب ليس متلقياً للنصوص فحسب، بل مفكك لها ومعيد لإنتاجها من جديد.

وهو أيضاً مؤسس على رؤية جديدة للإنسان ككائن لغوي اجتماعي على هدي من الأبحاث اللغوية وعلوم اللسانيات التي تماهي بين التفكير واللغة. وعلى هذا النحو، لم تعد اللغة أداة التفكير، بل الفكر بعينه، ولم تعد لائحة من الكلمات المعجمية المحددة الدلالات، بل نظام دينامي متطور في السياق الاجتماعي الثقافي للفرد.

وهو أيضاً مؤسس على رؤية خاصة للنص ليس باعتباره موئلاً للصور البلاغية ومصدراً لتسقط قضايا النحو والصرف، أو معيناً للمواعظ الأخلاقية والتعليمية، وإنما النص باعتباره التاريخ الاجتماعي للآخر: التاريخ الذي كان يجب أن يحدث لولا قمع السلطة السياسية، وبالتالي فالنص يصبح مكاناً للمقصي من رغبات الناس وأشواقهم المكبوتة.

إن هذه المنطلقات الفلسفية والأرضيات التي تأسس عليها الكتاب تطرح علينا رؤية بيداغوجية مغايرة تتحدد ملامحها بما يلي:

- مدرسة ترتبط بعمق بخلفية اجتماعية ثقافية.
- معلم مثقف يمتلك المعرفة والأدوات لتفكيك النص والدخول إلى بناه العميقة.
- منهاج مرن يستوعب إمكانيات الاختلاف ويحترمها.

إن كل ذلك –من وجهة نظر الكتاب– يؤدي إلى منتوج تربوي قادر على بناء علاقة تفاعلية ايجابية مع العالم، وهذا أسمى ما تطمح

اقتراح جديد في المجال النظري لدراسات القصة كسياق تعليمي ولأساليب تدريسها، ويقوم أيضاً على حاجة عملية في مجال تقديم نصوص قصصية إضافية من باب الإثراء، ومن حس يفترض أن هذه النصوص المقترحة ستملأ جزءاً من فراغات المنهاج الناتجة عن الفلسفة ذات البعد الواحد، المضمرة خلف عمليات اختيار النصوص، وكنوع من الإنصاف للمستبعَد من الكتب المدرسية، وقد ارتأينا أن تتصف النصوص المقترحة بالحوارية اللغوية، والطاقة الخيالية، وتعدد الشخصيات وتنوعها، وأنماط السرد والبيئات والخلفيات الاجتماعية. وتأتي هذه الاقتراحات لأسباب عملية تخص التعليم، وترتبط بتطوير المناهج المدرسية، وبخاصة أن عملية إنجاز هذا الكتاب ترافقت مع عملية إعداد الكتب المدرسية الجديدة في مجال اللغة العربية كأحد تجليات بناء المنهاج الفلسطيني. وقد مكّن ذلك من استقرائها والتفاعل معها ومقاربتها نقدياً في صيرورة تجريبها في المدارس في فلسطين.

والكتاب في جانبه النظري يهتم بالتنظير النظري لقضايا تعليم اللغة وتدريس القصة، فهو ينطلق من اهتمام بالواقع التربوي الفلسطيني خاصة والعربي عامة، فقد لاحظنا أن معظم الدراسات العربية في هذا المجال، سواء في حقل اللغة وتعليمها أم القصة ومعالجتها تعليمياً، تعتمد النظرة الجزئية، فتراها تتناول جزءاً من اللغة أو تقترب من النص، فتقوم بتقطيع أوصاله والعبث ببنيته وتحويله إلى مجموعة من الأفكار المتناثرة والجمل والفقرات المستقلة وتمارين تبنى على أن اللغة كلمات؛ فيتم بناء تمارين ونشاطات لوضع كلمة مكان أخرى ... وهكذا. إن تقديم اللغة بهذا الشكل وتحليل النصوص بهذه الطريقة المنعزلة عن سياقاتها النصية واللغوية والاجتماعية والثقافية لم يأت من فراغ، فوراء ذلك تكمن فلسفة ذات بعد واحد هي نتاج لأزمة حضارية تغرق فيها الأمة، وما أكثر الشواهد عليها! فهناك مشهد العراقيين على شاشات "التلفزة" وهم يخربون مؤسسات الوطن، أو يطالبون شيوخ القبائل وأئمة المساجد بضبط الوضع الأمني، وهذه المشاهد توضح حجم اللامنطق السائد في الحالة العربية عموماً، وتقدم دليلاً حياً على حقيقة غياب المؤسسات المجتمعية الحديثة والعصرية، والتباس مفهوم الوطن بمفهوم النظام الحاكم في ذهن المواطن العربي من جهة، والفراغ الهائل بين مؤسسات الدولة ومؤسسة القبيلة من جهة أخرى؛ فالسقوط الهش للدولة في العراق كشف غياب كل ما كان يجب أن يتراكم ويتحقق كبناء مؤسساتي بين مجتمعي ومرحلتي الدولة والقبيلة وهشاشته، وهناك مذبحة الديمقراطية في الجزائر والسودان وعودة الملكية والاستبداد المكشوف على طول الخريطة العربية وعرضها.

كل هذا يدعو إلى إعادة التفكير في الفكر التربوي العربي، وفي جوهر عمليتي التعليم والتعلم وأساليب التدريس، وطبيعة الأنشطة المستخدمة في المدارس، بغية هزّ بنية الدرس التقليدي التي ستشكّل، بالتأكيد، نوعاً من التمهيد والتأسيس لعمليات التغيير في بنية المجتمع.

الهوامش:

[1] يقصد بالموضوعة الثيمة كما يعربها البعض وهي ترجمة لكلمة (Theme) الإنجليزية التي تعني المحور الرئيسي للموضوع.

إليه التربية الإنسانية.

استكشاف القص: الرؤى والآليات

اختار الكاتبان من بين الأجناس الأدبية القصة كوسيط للتعليم والتعلم، على الرغم من تعدد الأجناس الإبداعية الأدبية، وهذا ليس انحيازاً للقصة على غيرها من حقول الإبداع الأدبي، بل لأنها:

- تشكل عالماً متخيلاً متكاملاً يقابل العالم الواقعي، وبذلك تتيح للمتلقي (الطالب) السباحة في الخيال واستكشاف الواقع الذي يعيش فيه ومساءلته، وهذا يمنح المتعلم فرصة لتعديل أرائه وسلوكه بشكل ايجابي.
- تملك إمكانات وطاقات تعليمية وتعلمية تجعل منها سياقاً يمكن من خلال توظيفه ومقاربته بشكل فعال تحقيق إنجازات تربوية ومعرفية كبيرة، كونها تمثل مناخاً ملائماً لإحداث تعليم وتعلم على المستويين الثقافي واللغوي بمستوياته المعرفية النظرية والمهاراتية التحليلية.
- تلعب دوراً جوهرياً في النمو اللغوي والثقافي للمتعلم.

ولما كان الكتاب قائماً على فكرة استكشاف القصة وتفعيلها تعليمياً، فقد أولى الكاتبان أهمية خاصة للتأطير النظري للقصة من حيث: بنيتها، وعناصرها، وطرق مقاربتها تعليمياً.

إن إحدى أسقم الطرائق المتبعة في تدريس القصة في مناهج اللغة العربية هي تلك التي تتعامل مع القصة باعتبارها وعاء للمواعظ الأخلاقية أو دروساً في النحو. إن هذا جانب في النص لا يمكن إغفاله، ولكن ليس هذا هو النص فحسب. يطرح الكتاب رؤية عميقة للقصة باعتبار أن (جوهر العلاقة مع الآخرين عبر الأزمنة والأمكنة قائم على القص)، وأن الحياة الإنسانية في أبسط صورها ما هي إلا قصة بدأت أحداثها على الأرض وما زالت، يلعب الناس فيها أدوار الشخصيات ويتحركون فيها وفق حبكة المصائر التي تحددها القوى المهيمنة والأشواق والتطلعات الإنسانية، وكل إنسان يبحث عن نهاية سعيد له ضمن هذه الحكاية الطويلة.

وفق هذا التصور تصبح القصص التي يكتبها الناس فصولاً صغيرة من القصة الكبرى التي هي الحياة والعالم، ويصبح المتلقي بطلاً في هذه القصة، ولهذا يرد في الكتاب: "وحين تلمس قصة ما قلوبنا فإنها تجد لنفسها فينا موطناً تسكن إليه، فالقصص هي التي تصنع ذلك النسيج المتواصل والدائم للجنس البشري".

أما من حيث البنية، فالقصة كما تتراءى في الكتاب: (خلفية زمكانية، يتحرك فيها شخوص القصة، وعبر هذه الحركة تنبني الأحداث وتتضافر مفضية إلى بنية تتضمن حبكة وزمناً ومشهداً وصراعاً، وتتحقق هذه البنية عبر فعل كلامي مباشر أو غير مباشر).

ولكن أين يقع المتلقي بالنسبة للنص؟ يحيل الكتاب إلى تموضع فعال للمتلقي باعتباره عنصراً خارجياً لا يقر للنص قرار من دونه، فالنص يفقد مبرر وجوده في حال غياب التلقي الفعال له، والتلقي الفعال للنصوص عملية لا تتحقق إلا بحضور ثلاثة مستويات: القراءة بعناية، والتفكير بعمق، والكتابة بقوة.

الكتاب وقضايا الخطاب:

والكتاب يضيء مناطق بقيت مهجورة في النص المدرسي، ففي مجال تحليل القصة، فإن الأمر المعتاد هي تلك الطريقة الكلاسيكية التي تتغيا تحديد عناصر القصة ومعرفة العبر والدروس المستفادة، أو تلك التي تتعلق بالتطبيقات النحوية والصرفية، أو في أحسن الأحوال تقصّي الصور البلاغية في النص، وهذه النظرة التسطيحية للنص محكومة أصلاً بالتوجهات الرسمية التي تقف خلف المشهد التربوي، وفق هذا التصور الاستاتيكي للنص المدرسي تنتفي إمكانات التفاعل الحواري والمساءلة بين الطالب والنص.

إننا مع هذا الكتاب إزاء مقاربات جديدة وتحليلات مختلفة، ولعل موضوعة الخطاب السردي من أهم الموضوعات التي يتبناها الكتاب، فالقصة ليست أحداثاً (متنا حكائيا) فحسب، بل هي، بالإضافة إلى ذلك، خطاب.

والخطاب هو طريقة تقديم الحدث. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الحدث الواحد يمكن أن نسرده بطرق عدة، فهنا تكمن أهمية أن نولي الاهتمام بموضوعة الخطاب السردي. ذلك أن الخطاب دوماً يحمل شحنة أيديولوجية يرمي من خلالها الكاتب عبر سارده المتواري خلف الهيئات التلفظية التأثير في المتلقي.

إن جهل المتلقي بقضايا الخطاب والتعامل مع النص كمجموعة أحداث يجعل المتلقي يسقط فريسة سهلة في شباك السارد، ويتمثل دون وعي تلك الشحنة الأيديولوجية التي يسعى السارد لتمريرها. وكأن السارد يزيِّن الحدث بطريقة تؤثر في المسرود له انفعالياً لكي يعطل الأسئلة العقلانية، وبالتالي يصبح المتلقي أسير انفعالاته: يحب ويكره ويغضب وفق ما أراده السارد.

لقد وردت في الكتاب مجموعة من المهارات مدعمة بالأمثلة تعين المعلم والطالب على امتلاك مهارات تقصّي الخطاب السردي وكشف المستور من مفرداته، وهي أمثلة من اليسر والسلاسة بحيث تكفل فهماً متكاملاً لموضوعة الخطاب، من بين هذه الأمثلة الميسرة، الجملة: (ابتسمت بقوة).

فالابتسام هو حدث يقع في مستوى القصة، والقوة تشير إلى الخطاب. وكأن السارد هنا يريد أن يقنع المسرود له أنه إزاء شخص مرائي لا يبتسم بتلقائية، فهو إذن جدير بأن نضعه في سياق سلبي. وهنا تكمن خطورة أن تبقى المقاربات التحليلية المدرسية رهينة المستويات الدنيا في النص. بل يجب أن يتغلغل التحليل إلى أعماق النص المتمثلة بالخطاب، الخطاب الذي أبطاله السارد والمتلقي، ومادته خلطة أيديولوجية تتسرب عبر القنوات الخفية التي يحدثها السارد في وعي المتلقي.

ولكن كيف ينعكس ذلك على موضوع النص المدرسي؟ يجيب الكتاب عن هذا السؤال: (ونتيجة لهذا الفهم تحققت إحدى النقلات في عالمي النقد والأدب، فلم يبق النقد رهين البحث في مقصدية الكاتب، بل تجاوزها للبحث في مقصدية النص تلك الرؤية التي استبدلت المتن الحكائي بالمبنى الحكائي، ليصبح هو موضوع الدرس والبحث العلمي).

إن هذا الفهم العميق للنص-كقصة وخطاب معاً- من قبل المعلم والمتعلم من شأنه تطوير وضعية تعليم اللغة وآدابها بشكل يتجاوز الأنماط الصفية الجامدة، مساعدة المتعلم على تفكيك النص بغية الوقوف على القيم المضمرة فيه، تعميق مفهوم النقد والحوار في الثقافة المدرسية، عدم الاستسلام أمام النص واعتباره حقيقة كاملة.

الكتاب في شكله التطبيقي:

تمر الثقافة المدرسية اليوم بما يمكن أن يسمى مرحلة تعفن طرائق التدريس المستهلكة، وهذا يعني أن الحاجة ماسة لطرائق جديدة تعطي معنى للحياة والتربية. لم يأت هذا الكتاب ليكشف عن أسقام الطرائق المتبعة في تدريس النصوص الأدبية فحسب، بل ويقدم البديل العلمي والعملي لها.

إن ما يمنح هذا الكتاب قيمة حقيقية ومصداقية عالية هي قابليته للأجرأة في غرفة الصف، فالكتاب لم يكتف بالتأصيل النظري لموضوعة القص، بل ساندها وقاربها تعليمياً من خلال نوعين من الفعاليات وهي الأنشطة الصفية وأوراق العمل، وهذه التطبيقات بنوعيها تغطي كل عناصر القصة والخطاب، ففي مستوى القصة كمتن حكائي ثمة نشاطات تستكشف:

- الحدث وطريقة تطوره في السياق الطبيعي.
- الخلفية الزمنية والمكانية في بعدها التاريخي والطبيعي.
- الشخصيات وأنماطها وتحولاتها.

أما في مستوى الخطاب، فالنشاطات أكثر كثافة وعمقاً، بحيث لم تترك صغيرة أو كبيرة في النص إلا ووضعتها في مشرحة التحليل السيميائي، ابتداء بالعنوان وطريقة ارتباطه بالنص، وأفق التوقع الذي يحيل إليه، ثم التحليل الخطابي للبنية الحكائية من حيث: التقديم والتأخير والغايات المرتبطة بذلك، وبيئة القصة، وما يضفي عليها السارد من سمات، والصوت السردي ووجهات النظر.
إضافة إلى ما سبق ثمة أنشطة أخرى كتابية وتشكيلية ودرامية غاية في قدرتها على الإمتاع والدهشة من قبيل:

- تمثل الشخصيات في النص وشطرها بغية استنطاق مكنوناتها الداخلية.
- تشكيل صور للشخوص في وضعيات مختلفة من النص.
- تصوير وضعيات جديدة للشخوص خارج النص، ومحاولة تقصّي هذه الشخصيات ما قبل بداية وما بعد نهاية القصة، على اعتبار أن ثمة أكثر مما تقوله الحكاية المكتوبة.

كلمة أخيرة:

قليلة هي الكتب التي تجعل القارئ يقف فور تلقيها ليجد نفسه أمام صوت داخلي ملح بضرورة إعادة ترتيب أولوياته الثقافية، إن هذا الكتاب واحد منها، ذلك أنه ليس كتاباً في تعليم اللغة فحسب، بل هو إضافة إلى ذلك محاولة جادة في الكشف عن مدى التدهور الحاصل للثقافة العربية بشكل عام، والفكر التربوي بشكل خاص. في هذا السياق، يحيل الكتاب -وإن بشكل جزئي- إلى تلك الاستفهامات الكبرى حول ما آل إليه الواقع العربي الثقافي والاجتماعي من هشاشة، كنتاج لفكر تربوي عربي يمجد السلطة ويكرس للأحادية وينتصر للتفسير على حساب التأويل، كل ذلك أدى -كما يشار في الكتاب- إلى مواطن عربي التبس عليه مفهوم الوطن بمفهوم النظام الحاكم، إن هذا التدهور لم يأت من فراغ، بل هو نتاج تراكمي لمنظومة تعليمية وقفت وراءها فلسفة ذات بعد واحد، هي نتاج لأزمة حضارية تغرق فيها الأمة.

كل هذا يدعو إلى إعادة النظر في الفكر التربوي العربي، وفي جوهر عمليتي التعليم والتعلم، وأساليب التدريس، بغية هز أركان الدرس التقليدي كمرحلة أولى في التمهيد لعملية التغيير في بنية المجتمع.

مشهور البطران- معلم/إذنا الخليل
mashhourbatran@hotmail.com